الباحثة عائشة غطاس مؤرخة متألقة[1]

د. ودان بوغفالة
جامعة معسكر

السادة والسيدات الحضور؛ السلام عليكم ورحمة الله

يسرنا في مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية بجامعة معسكر الذي يرأسه الدكتور عبيد بوداود أن نعقد هذا الملتقى الوطني تكريما للأستاذة الراحلة عائشة غطاس التي عصف بها المنون بمدينة الجزائر يوم الثلاثاء العاشر من ماي عام 2011، وقد رحلت عنا أيضا في هذه السنة ومنذ أيام أستاذة ثانية بجامعة ابن خلدون بتيارت وهي الأستاذة سعدو التالية، وأستاذة أخرى بجامعة الجزائر وهي الأستاذة صغير مريم، فرحمة الله على الجميع.

كنا نستحضر ذكريات كثيرة هنا بجامعة معسكر عن الأستاذة الفاضلة الدكتورة عائشة غطاس منذ أن عرفناها؛ ناقشت معنا مذكرات الماجستير[2]، وحكَّمت لنا بحوثا علمية في مجلة المواقف التي تُصدرها كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية منذ عام 2007[3]؛ وهي أيضا عضو في الهيئة العلمية لمجلة الناصرية الفتية التي يُشرف عليها مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية وقد صدر منها ثلاثة أعداد[4]، ونترقب صدور العدد الرابع الذي خصص لأعمال الملتقى التكريمي للفقيدة.

وكانت تعود بنا الذاكرة عن عائشة دوما، محضرة المشاهد الزاهرة من سيرتها العطرة، ولم نكن نتصور أبدا أنه سيأتي يوم نلقي فيه كلمة تأبين نبكي فيها بحرقة فراق الأخت العزيزة؛ التي رحلت عنّا فجأة ونذكر خصالها ومكانتها.

نعزي الباحثين ببالغ الأسف وعظيم الحزن في فقيدة التاريخ والبحث العلمي ليس في الجزائر فحسب، بل في المغرب العربي كله الذي فقد باحثة من طراز عال على حد تعبير الأستاذ عبد الجليل التميمي من تونس[5]، وقد صدق فيما قال. لقد خطفها من بيننا الموت وغيبها عنا بعد أن أشرقت بنور علمها ونحتسبها عند الله شهيدة. الكل يذكرها بخير والحمد لله، كل من عرفها يحتفظ لها بذكرى طيبة، من مجالس العلم والنقاش والحوار، وكيف كانت تقدم باستمرار صورا رائعة لتواضع العالم وأمانته العلمية وروح المسؤولية والطموح والأمل والتفاني.

نشهد لك يا عائشة من على هذا المنبر أنك كنت تحضرين باستمرار، وتطوعا منك وبكل تواضع مع من كان يصغرك سنا ويقل عنك عمرا كل يوم خميس وحيث كان يغيب الكثير لتنشيط الندوات الأسبوعية لطلبة الماجستير التي كان يشرف عليها الأستاذ ناصر الدين سعيدوني بقسم التاريخ بجامعة الجزائر في نهاية التسعينيات من القرن الماضي[6]. كنت لا تترددين في طرح الأسئلة الوجيهة وتقديم الإجابات الدقيقة وطلب النصح والتوجيه لترشيد أبحاثك في الدكتوراه.

نشهد لك يا عائشة بالطرح العلمي الهادئ وبروح التسامح والتسامي، كل ما هو حق ومعقول كنت تدافعين عنه وتذودين عن حماه. جمعتنا بك الأقدار في أكثر من مناسبة علمية بفرنسا والجزائر[7]، بمدن آكس آن بروفانس والجزائر ووهران ومعسكر، كنت دائما باحثة متألقة خلوقة، تثيرين النقاش ولا تدعين امتلاك الحقيقة. لا ينزعج الطالب من التصويبات والتوجيهات المقترحة منك، ويُقر بأهميتها وشرعيتها، ولا يمل الحضور من الإصغاء إليك وأنت تحاضرين وتستعرضين تاريخ الوقائع وجغرافيتها.

أبَّنَك الأستاذ أبو القاسم سعد الله بما أنت أهل له، عرفانا لك على المقام العالي والدرجة الرفيعة التي أصبحت جديرة بها[8]. من ذا الذي يُنكر أنك ساهمت في التأسيس للدراسات التاريخية العثمانية في الجزائر مع ثلة من أساتذتك وزملائك وطلابك في ربوع الوطن، عَرِفتك مراكز البحث والجامعات في الداخل والخارج وحفرت اسمك على أبوابها.

تبكيك جامعة معسكر ومدينة الأمير عبد القادر، كما تبكيك مدن أخرى مثل المدية وغرداية والجزائر. وقفت بمدينتنا على ضريح العلامة الحافظ أبي راس الناصر، وغرفت بحماسة منها التاريخ والمآثر. كم كنت تذكرين تعلق والدتك بحمامات بوحنيفية، وتستحضرين بها ذكريات الوالد والعائلة والطفولة بكل عفوية.

رحِمَكِ الله يا عائشة وطيب ثراك وأسكنك فسيح جِنانه، ﴿**إنّا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

إنّ كلمات التأبين أيها الحضور الكريم لا تفي الراحلين حقهم، لكنها تبقى الحد الأدنى من واجب الوفاء لهم. إنني حين أمسكت القلم لأكتب هذه الكلمة عن عائشة غطاس بهذه المناسبة شعرت بواجب التعريف بتصور الأستاذة الراحلة عن موضوع الحرف والحرفيين الذي أنجزت عنه أطروحة دكتوراه ونشرتها في كتاب عام 2007 بعنوان "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700–1830 مقاربة اجتماعية–اقتصادية".

لقد درست الأستاذة موضوع الحرف في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1700–1830) من خلال الإشكالية التالية المتمثلة في « جملة من التساؤلات منها:

1- ما هي ملامح التنظيم الحرفي، وما هي التوجهات الاقتصادية للمدينة؟

2- ما الشرائح الاجتماعية التي أسهمت في ذلك؟ وما هو وضع الحرفيين المادي؟

3- ما هي الحرف التي منحت الرفاه وفرص الارتقاء الاجتماعي؟

4- ثم ما هي الممارسات والسلوكات الاجتماعية التي ميزت شريحة الحرفيين؟ »[9].

أما الهدف من هذه الدراسة كما ورد في مقدمة الكتاب؛ فهي: « رسم صورة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع مدينة الجزائر من مطلع القرن الثامن عشر إلى غاية 1830. »[10]. إن الهدف الذي كانت تتوخاه الأستاذة هو معرفة القوى الاقتصادية والاجتماعية الأساسية للمجتمع؛ وهذا من خلال دراسة التنظيمات الحرفية والمهنية المعروفة في تلك الفترة باسم « الجماعات الحرفية».

لقد أنجزت الدكتورة غطاس عائشة هذا البحث من خلال وثائق أصلية محلية تتمثل أساسا في سجلات المحاكم الشرعية للمحكمتين الحنفية والمالكية بمدينة الجزائر مثل عقود التحبيس وعقود البيع والشراء وأحكام المنازعات القضائية، وعقود تصفية التركات وعقود الزواج والطلاق والعتق والهبات والوصايا. كما استثمرت الباحثة كذلك دفاتر التركات الصادرة عن بيت المال للجزائر خلال العهد العثماني[11].

وضم الكتاب أربعة أقسام، تناول القسم الأول مجتمع مدينة الجزائر من حيث النشأة والتطور، أي التركيبة السكانية والتنظيم الاجتماعي ومسألة طبيعة السلطة المحلية[12]. وعالج القسم الثاني ملامح التنظيم الحرفي وتطرق إلى عدة مسائل مثل مشكل عدد الجماعات الحرفية واختيارات الأفراد في

العائلة الواحدة والتنظيمات الحرفية وعلاقاتها والنظام الضريبي الذي كان يخصها[13].

أما القسم الثالث من هذا الكتاب، فكان مخصصا للفعاليات الاقتصادية؛ مثل التوزيع الطوبوغرافي للأسواق وتركيبة فئة الحرفيين وعلاقة الجيش بهم. وانتهت الباحثة في القسم الرابع بالوصف والتحليل إلى الحياة اليومية لشريحة الحرفيين؛ وهو قسم يبحث في: « الممارسات والسلوكات الاجتماعية التي ميزت هذه الشريح .... »[14].

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة في هذه الدراسة على وجه الخصوص، ما ورد لديها عن حقيقة التسيير في المدينة وخلافا لما تُروجه المدارس الأوربية عن المدن العربية، حيث كتبت عائشة تقول: « وإذا بدا التسيير السياسي والإداري للمدينة تحت الرقابة الكلية للدولة بحيث خضعت المؤسسات الإدارية مباشرة للسلطة، ففي الواقع المؤسساتي والعملي هناك عدة مستويات من السلطة: السلطة السياسية والسلطة الدينية والسلطة التجارية؛ وهي أشكال تنظيمية ومؤسساتية. كما برزت المساهمة المحلية فيها بجلاء: فالعنصر المحلي بما في ذلك الأندلسي أسهم فعليا في تسيير المدينة. وخضع التسيير لإشراف مجموعة واسعة من الموظفين الحضريين بمهام معينة ومحددة، مما يفند الرأي القائل بأن إحدى خصائص المدينة العربية ندرة الموظفين الحضريين، وكذا مقولة "الفوضى العارمة" التي روجتها الدراسات الغربية التي تفتقر إلى أي سند تاريخي.»[15].

لا يسعني في الأخير إلا أن أشكركم على حسن الإصغاء والمتابعة، وأتمنى النجاح لفعاليات الملتقى وإقامة طيبة لضيوفنا الكرام الذين شرفونا بحضورهم.

الهوامش:

1- نص الكلمة التي ألقيت بجامعة معسكر يوم 10/ 04/ 2012 بمناسبة انعقاد الملتقى الوطني الأول حول الحرف من طرف مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية تكريما للفقيدة المرحومة عائشة غطاس.

2- ناقشت الأستاذة غطاس بجامعة معسكر يوم 03/ 03/ 2008م مذكرة **ماجستير** في التاريخ الحديث موسومة بالدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات للطالب بن صحراوي كمال.

3- مجلة المواقف هي مجلة أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، تصدر بانتظام عن كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة معسكر، الجزائر، صدر العدد الأول عام 2007 وصدر العدد السابع عام 2012. ردمك 7872-1112.

4- مجلة الناصرية هي مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الاجتماعية والتاريخية، تصدر عن مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، صدر العدد الأول عام 2011 وصدر العدد الثالث عام 2012. ردمك 2170-1822.

5- عبد الجليل التميمي أستاذ جامعي ومؤرخ تونسي، من مواليد عام 1938 بالقيروان؛ وهو رئيس مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات. كان التميمي أحد أعضاء لجنة مناقشة أطروحة دكتوراه الفقيدة.

6- الأستاذ ناصر الدين سعيدوني هو رائد الدراسات العثمانية في الجزائر وأحد أساتذة الفقيدة، أشرف عليها في مرحلة الماجستير وناقشها في أطروحة دكتوراه الدولة التي تقدمت بها عام 2002.

7- شاركت إلى جانب الأستاذة في ندوتين علميتين دوليتين عن الوقف بالجزائر، انعقدت الأولى بمدينة الجزائر تحت عنوان "الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" بتاريخ 29-30 ماي 2001، وانعقدت الثانية بمدينة آكس آن بروفانس بفرنسا تحت عنوان "دور الأوقاف بالجزائر مل بين القرنين 17 و19".

8- أبو القاسم سعد الله، « عائشة ... فقيدة البحث العلمي»، جريدة الخبر، عدد 19 ماي 2011.

9- عائشة غطاس، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830: مقاربة اجتماعية اقتصادية**، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 2007، ص 7.

10- المرجع نفسه، ص7.

11- المرجع نفسه، ص ص 405-407.

12- المرجع نفسه، ص8.

13- المرجع نفسه، ص8-9.

14- المرجع نفسه، ص9-10.

15- المرجع نفسه، ص383.